

صورة من عهد النهضة الأوربية

البابا والمثال

عندما قابل البابا يوليوس الثاني المثال لأول مرة ، كان كل منهما قد بلغ قمة الشهرة في محيطه . فلم يكن البابا شبحاً من تلك الأشباح العابرة التي جلست على كرسي القديس بطرس وتركت أسطراً على صفحات التاريخ ضئيلة ، بل برزت مواهبه منذ نصبه عمه البابا سستو الرابع كردينالاً ، فكان من أقوى ذوى القبعات الحمراء شخصية ، ومن أمضاهم عزيمة ، وقد عرف بالسخاء في تشجيع العلوم والفنون ، كما عرف بشدة العارضة واللدد في الخصومة إذا غضب . فما إن مضى به الزمن وامتدت به الحياة حتى صار فريق من الناس يعتقدون أنه أولى من غيره بالجلوس على كرسي الباباوية وأجدر رجال الدين بأن يملأ هذا العرش الكبير .

لكن إسكندر السادس ، أو إسكندر بورجيا إذا أحببت ، فاز بالانتخاب دونه بعد وفاة نيقولا الخامس . ولم يقنع اسكندر السادس ، أو لم يقنع أبناؤه ، بأن يكون جالساً على العرش الروماني للمسيحية والمدنى لروما وتوابعها من بلاد وأراض واسعة في إيطاليا ، بل أراد أن يؤسس ملكاً لبنيه ، وطمع ابنه شيزاري بورجيا في أن يكون ملكاً على إيطاليا بأسرها ، جاعلاً نواة هذا المطمح العظيم أن ينتزع أرض الكنيسة من الكنيسة . وكان من الطبيعي أن يكون الكردينال دي روفيري ، الذي نذكره تحت اسم يوليوس الثاني ، أشد خصوم البابا وأبنائه في مشروعاتهم ، وأكثر الناس تنديداً بمطامعهم ، وكان آل بورجيا لايتورعون عن محاربة خصومهم بجميع الوسائل . حتى الوسائل التي تعد جرماً من فود عادية ببله رجل من رجال الدين ، بل ببله بابا أو كرادلة ، فكانوا مثلاً — هكذا أثبت ذلك التاريخ ، أو لم يثبت وإنما هكذا قال معاصروهم — يلجأون أحياناً

إلى طريقة بسيطة في التخلص من خصومهم : فكأس من الشراب مشوب بمادة يعرف آل بورجيا سرها كفيلة بذلك .

لذلك رأى الكردينال دى روفيرى مع خصومته وشدة عارضته — كما رأى غيره من كرادلة — أن حياته ليست بآمن في روما ، واضطر إلى الفرار والالتجاء إلى ملك فرنسا ، يعيش في أرضها ويقوم في الوقت نفسه حرباً عواناً على بابا بورجيا .

فإذا مات البابا إسكندر السادس في ظروف غامضة ، إذ كان الناس لا ينتظرون وفاته ، توقع الناس أن يليه الكردينال دى روفيرى غريمه . ولكن ذلك لم يحدث ؛ لأن الكرادلة كعادتهم يُؤثرون البابا الضعيف على القوى ، وانتخب الكردينال بيكولمىني باسم پايوس الثالث ، ولكنه لم يعمر غير بضعة أشهر ، وانعقد مجلس الكرادلة ، فلم يكن بد من انتخاب يوليوس الثانى .

ولسنا نزيد أن نسرد تاريخ هذا البابا العجيب ، فقد برزت قوته بمجرد توليه كرسى الباباوية ، فهو لم يقنع بأن استخلص أراضى الكنيسة من شيزارى ، واضطره إلى التشرذم والنفي والموت في بلاد بعيدة ، بل أخذ يستخلص غيرها من الأراضى التابعة للبابا ، فشن الحروب وسير الجيوش على مدينة پيروچيا ، ثم على مدينة بولونيا ، وكان يسير مع جنوده في ثياب أقرب إلى ثياب القواد منها إلى ثياب البابا ، وهو يستحث جنوده على القتال ويدخل في طليعتهم إلى المدن إذ تسلم إليه .

ولقد نعجب إذ نرى أن المؤرخين والكتاب من الفرنسيين إلى اليوم يحبون أن ينحوا باللائمة على البابا يوليوس الثانى ، ويزعمون أنه نبذ ما يليق بالبابا من وقار ، وأنه كان يسلك مسلك القواد المرتزقة — الكوندتيرى — الذين كانوا يؤجرون أنفسهم وجنودهم لأمراء الدول الإيطالية ، وللبراطرة والملوك الذين كانوا يطمحون دائماً إلى الاستيلاء على المدن والبلاد الإيطالية . ولكن لعل الكتاب الفرنسيين متأثرون حتى الآن بموقف البابا نحو بلادهم . فلقد عرفنا أنه لجأ إلى فرنسا وهو كردينال . ويجب أن تعرف أن الكرادلة الفرنسيين أيدوه ، وحمّلوا على انتخابه لكرسى الباباوية ، وكانوا ينتظرون منه أن يؤيد سياسة فرنسا ومطامعها ، ولكنه لم يفعل ، بل سلك سياسة مستقلة غرضها

الأول حماية ما للكنيسة من نفوذ سياسى . وكان طبيعياً أن يصطدم فى مبدأ حكمه بملك فرنسا ؛ فقد تحدى الملك فى أغراضه ، ولم يتردد فى قتال الفرنسيين ، وعرف كيف ينهزم أمامهم ، ثم كيف يهزمهم .

أما المؤرخون الألمان فإنهم جميعاً ، أو أكثرهم ، يعتبرونه أعظم رجل جلس على كرسي البابا فى عصر النهضة . ولعل ما اتصف به من روح الحرب والقتال ، مما يخرج به عن موقف رجل الدين ، قد صادف هوياً فى نفوسهم وفى طبيعتهم المناضلة . ولكن ما لنا نحن الشرقيين لا ننظر إلى هذا البابا وزملائه من الذين حكموا روما فى عصر النهضة نظرتنا إلى النظام القائم عندئذ فى الشرق ! ألم يكن الخليفة من بنى العباس رجل دين ودنيا معاً ؟

على أن ما يهمنى فى السنوات الثماني من حكم البابا يوليوس الثانى ، ليس حروبه ، فتلك قصة رائعة لذيدة ، وليس هذا موضعها ، ولكن ما يهمنى هو ذلك النشاط الفنى العظيم الذى ظهر فى عصره نتيجة لتشجيعه . فالبابا يوليوس الثانى حوّل روما من مدينة خربة من مدن القرون الوسطى ، إلى مدينة من مدن الفن الخالدة ؛ فقد جذب إليها أكبر رجال الفن فى عصره ، وكان من حسن طالعه أن عصره يعج بالرجال النابغين فى مختلف الفنون ، ف جذب إلى روما أكبر المهندسين ، وأكبر المصورين ، وأكبر المثالين .

ولقد خدمه حشد منهم ، نذكر من بينهم برامنتى ذلك الذى أشرف على العمل فى إعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، فصارت تحفة نادرة من تحف الفن كما زراها اليوم ، وهو الذى عرف ما فى الصبي رافايل من مقدرة على التصوير ، فعهد إليه أن يضع تلك الرسوم الخالدة التى زراها إلى اليوم فى شرفة من شرفات قصر القاتيكان ، ولكن الصفحة البارزة فى حياته الفنية ، هى قصته مع ميكلا أنجلو ذلك المثال الخالد .

لقد نشأ المثال ميكلا أنجلو بوناروتى فى مدينة فلورنسا ، من أسرة عريقة ، وفى عصر لورنزودى مدينتشى الفخم ، وظهرت مواهبه الفنية وهو لا يزال طفلاً ، وبدأت هذه المواهب جلية لوالده ، فلم يربداً من الاستجابة لميول الصبي ، فعهد فى تعليمه الرسم إلى جريلاندايو من أكبر المصورين فى فلورنسا ، فأظهر فى وقت قصير مقدرة فى فن التصوير وأثار إعجاب أستاذه ، حتى قال ذات مرة إنه ليعرف أكثر مما أعرفه أنا .

وكان لورنزو دي مديتشي محباً للفن التماثيل ، فجمع مجموعة عظيمة من التماثيل القديمة ، وأنشأ في حديقته بساحة سان ماركو مدرسة يتعلم فيها الشبان هذا الفن ، واتخذ برتولدو المثال لها رئيساً . فطلب من جريلاندايو أن يختار له من بين تلاميذه من يعيل إلى فن التماثيل أكثر من التصوير ، فاختار له ميكل انجلو الذي أخذ بعد بضعة أيام في احتذاء بعض التماثيل القديمة مع أنه لم يلمس الرخام من قبل . وأعجب لورنزو برأس رجل شيخ نقله المثال الشاب إعجاباً شديداً . وكان الشاب في دقته قد فتح فم التمثال ووضع داخل الفم لسانا والأسنان كاملة . فقال له لورنزو ضاحكا : ألا تعلم يا بني أن الشيوخ يفقدون دائما بعض أسنانهم ! وكان الشاب يحترم الأمير احتراما كبيرا . ولم يأخذ الملاحظة على أنها دعابة ، فكسر بعض الأسنان وعدل من اللثة . فلما شاهد الأمير ذلك زاد ضحكه وزاد إعجاباً بمهارته ، وأرسل في طلب والده وأستاذته في أن يقيم الصبي في القصر ، ويطعم من طعامه ، وكان عندئذ في الخامسة عشرة من عمره ، وقد ظل مقبلا في القصر إلى وفاة لورنزو .

لم يكن الشاب ليقنع بما ظهر من مهارته ، فأخذ يحاول أن يتعرف الجسم الانساني ، وكان في ذلك الوقت يصنع صليباً من الخشب لكنيسة روح القدس بفلورنسا ، فأنزله رئيس الكنيسة في غرفة مناسبة ، وسمح له في تشریح بعض الجثث ليقف على تكوينها ، وبذلك زاد خبرة ومعرفة بتكوين الجسم الانساني وما فيه من عضلات .

ثم سافر قبل طرد أسرة مديتشي من فلورنسا بقليل إلى البندقية ، فلم يجد عملا ، فرحل عنها إلى مدينة بولونيا حيث أقام أكثر من سنة بين أسرة كبيرة عرفت قدره ، ثم عاد إلى وطنه . وحدث في ذلك الوقت صنع تمثالا للقديس يوحنا لأحد أفراد أسرة مديتشي ، ثم صنع تمثالا من الرخام لآله الحب وهو نائم . فلما شاهده أحد العطاء قال له : إنك لو أرسلته إلى روما على أن يدفن في الأرض ثم يخرج منها ، لظنوه تمثالا قديماً ، ولدفعوا لك أضعاف ما تجنيه من ثمنه في هذه المدينة . وقد فعل ، وجاز الأمر على الكردينال سان جورجيو ، فاشتراه بمائتي دينار ذهباً . وشاع الأمر بعد ذلك في مدينة فلورنسا ، واضطر إلى رد النقود ، وإن كان المشتري لم يسلم من النقد لانه لا يهتم للفن الحديث مهما كان إتقانه .

وكان في فلورنسا قطعة من رخام أفسد مثال من مقاييسها فلم تعد صالحة لشيء، وظلت ملقاة لا نفع منها، إلى أن استأذن ميكل أنجلو في أن تعطى له، فوضعتها إدارة المدينة تحت تصرفه، فاذا به يصنع من تلك القطعة التي كانت لا تصلح لشيء، تمثالاً خالداً يمثل صورة البطل دافيد، فكان هذا التمثال وسيظل دائماً فخراً للمثال ولموطنه.

إذن كان كل من البابا والمثال قد بلغ قمة الشهرة في محيطه، عند ما أرسل البابا يوليوس الثاني في طلبه، وكان المثال مع كل ما بلغه من شهرة حول الثلاثين من عمره، ولا يزال في شرح شبابه، وهو متوسط القامة نحيل متوتر الأعصاب، أكتافه عريضة على أنها متناسبة مع قامته، وكان وجهه كبيراً، وتبدو في عينيه الصغيرتين مظاهر الطيبة، وهو غير قبيح الصورة مع أن أنفه كان أفطس إذ كسر عقب حادث وقع له في صباه. وكان ميكل أنجلو سريع الغضب سريع الرضا. أما البابا فكان يبدو، كما نراه في صورته التي رسمها له رفايل، طويل القامة نحيلاً بعينين متوقدتين نافذتين، ويبدو كما نراه في هذه الصورة أيضاً، متوثباً سريع الغضب أيضاً وسريع الرضا. وكان البابا قد عرفه لا بشهرته فقط، بل لأنه شاهد شيئاً من أعماله الخالدة. فقد رأى ذلك التمثال الرائع الذي يمثل حنو الام المقدسة نحو ولدها الجريح، والذي نشاهده ونعجب به إلى اليوم في الركن الأيمن من كنيسة القديس بطرس. فلما جاءت دعوة للبابا أسرع إلى روما ووصل إليها في شهر مارس سنة ١٥٠٥، فوجد في البابا أكبر عاهل يقدر رجال الفن ويحفظ لهم كرامتهم. وكان البابا يتابع أعمال الفنان في اهتمام كبير، ويلح عليه في إتمام ما بدأ به من عمل الحاح الطفل فيما يرغب فيه. ولا ينتهي الفنان من عمل حتى يكمل إليه البابا عملاً آخر. وكان البابا والفنان متفاهمين كل التفاهم، ولكن كل منهما كان حاد الطبع عنيفاً؛ فكانا على ما لديهما من حب واحترام متبادل، تقع بينهما مصادمات ومشادات لا يلبث أثرها أن يزول، ويتغلب عليها ما طبعها عليه من طيبة قلب وحب للفن وتقدير له.

عهد إليه البابا أول ما عهد في إنشاء بناء نغم يكون من الرخام يوضع فوق قبره، وقد أراد البابا أن يتم ذلك في حياته، فأعد ميكل أنجلو عدة رسوم واختار البابا إحداها، ووقع المثال عقداً في أن يتم ذلك النصب في خمس

سنوات ، على أن ينقد ثمانا قدره عشرة آلاف دينار ويعنح في هذه السنوات الخمس راتباً شهرياً قدره مائة دينار . وتحمس ميكل أنجلو لهذا العمل ، وسافر إلى تلال مدينة كارارا المشهورة بصفاء رخامها ليختار الأحجار بنفسه وظل يراقب العمال حتى أمموا استخراج قطع الرخام التي نقلت إلى روما بالبحر ، وكانت تزن نحو عشرة ومائة طن ، واستغرق هذا العمل ثمانية أشهر .

عاد إلى روما بأحجاره التي وصلت بعد صعوبات كبيرة ، فأقام مصنعه في ساحة سان بيترو ، واستعد للعمل في هذا البناء التذكاري الذي لو أنه تم كما بين في الرسم لكان أعجوبة الزمن .

ولكن ميكل أنجلو كان يدبر لعمله والبابا يدبر لعمل آخر : ذلك أن أفكار البابا أخذت تتجه وجهة جديدة ؛ فقد رأى قبل أن ينشئ هذا النصب الذي ليس له مثيل والذي كان يقدر وضعه في كنيسة القديس بطرس ، أن يجدد الكنيسة نفسها ويعيد بناءها ، بحيث تصبح جديرة بمقر المسيحية . وموئل رئيسها . وإذن فقد رأى أن يوقف بناء النصب مؤقتاً إلى أن يشرع في تجديد الكنيسة ، كي يكون هنالك تناسق بين نخامة البناء ونخامة النصب التذكاري . وفي الوقت نفسه كان البابا يدبر عملاً فنياً آخر لميكل أنجلو ، وهو أن يعطى حوائط المصلى المعروفة باسم البابا سستو بالرسم ، وكان ميكل أنجلو قد ترك فن التصوير منذ صباه واتجه بميله نحو النحت ، فتلكأ في إجابة البابا إلى رغبته ، واعتذر بأنه لا يتقن التصوير ، وأنه وقد بدأ في العمل الذي تعاقدا عليه ، واستأجر أعواناً من رجال الفن من فلورنسا بعد إذن البابا ، وتقديم نقوداً من عنده ، وأنفق في سعة على العمل غير منتظر الأقساط التي تدفع إليه ، لا يستطيع الآن أن يترك هذا العمل . وطلب مقابلة البابا شخصياً ، ليشرح له الظروف ويقنعه بالسير فيما اتفق عليه ، لاسيما أنه نعى إليه أن البابا صرح لبعض رجاله بأنه لن ينفق فلساً على الأحجار . على أن البابا لم يقبله بل أجل مقابله أسبوعاً ، فلما ذهب في الموعد المضروب قيل له إن البابا مشغول عن مقابله في ذلك اليوم ، فاستشاط غضباً وصاح قائلاً : « أخبروا البابا بأنه إذا أرادني فليجديني إذا استطاع ذلك » . وخرج مسرعاً من القصر ، فطلب من أتباعه أن يبيعوا متاعه وامتنى جواداً ورحل عن روما وهو لا ينتوى الرجوع إليها .

أخبر البابا يوليوس بفرار ميكل أنجلو وكان ذلك في اليوم السابق للاحتفال

بوضع الحجر الأساسى فى بناء كنيسة القديس بطرس ، فأمر بأن يجد بعض جنوده فى أثر المثال الهارب وأن يأتوا به ولو قسراً إذا اضطروا إلى ذلك . ولكن المثال كان يسرع العدو ، ولم يهدأ باله حتى وصل إلى حدود دولة فلورنسا . وهناك أدركه الرسل وسلموه رسالة البابا التى يأمره فيها بالعودة وإلا غضب عليه . ولكن الفنان الغضوب لم يكن ليذعن فى هذا الظرف ، بل كتب إلى البابا رسالة يقول فيها : « إننى لم أكن أستحق بعد ما قدمته لقساستك من خدمات أن أطرده من القصر كما يفعل بخادم حقير ، وما دمت قد عدلت عن إقامة النصب التذكارى فقد تحررت من العقد ، ولا أريد أن أرتبط بعمل آخر . »

رأى أصدقاء من مواطنيه فى خدمة البابا أن يتوسطوا فى الأمر ، وكاتبوا ميكل أنجلو طويلاً فى ذلك ، فكان يتمنع . وقد ذكر له أحد هؤلاء الفنانين فى رسالة أنه كان جالساً فى حضرة البابا مع الفنان برامنتى ، الذى وضع رسوماً لتجديد كنيسة القديس بطرس ، وكان برامنتى لا يحب ميكل أنجلو ويفار منه ، فقال له البابا وهو يشاهد الرسوم سأرسل غداً صديقنا هذا سان جالو ليأتى بميكل أنجلو كى يبدى لنا رأيه ، فتضايق برامنتى وقال : « إن ميكل أنجلو لن يأتى فأنا على علم بطباعه » ، ثم أبدى أن ميكل أنجلو لا يحسن التصوير ، ولذلك فرّ من عمل الرسوم .

وكانت هذه الأنباء تحز فى قلب ميكل أنجلو ولكنه ظل على موقفه . وحاول البابا محاولة أخرى ، فأرسل رسالة إلى مجلس الحكم فى فلورنسا يقول فيها : « أبناءى الاعزاء إليكم تحيتى وإنى لأبارككم . وبعد فقد بلغنا أن ميكل أنجلو المثال الذى تركنا بغير سبب ولجورد نزوة خائف ، من العودة . أما نحن فلنسنا غاضبين عليه ، لأننا نعرف نزوات الرجال ذى المواهب . ولكنى نبعد كل مظاهر القلق نعتد على إخلاصكم فى إقناعه باسمنا بأنه إذا عاد فلن يصاب بسوء ، بل سيستمتع برضانا كما استمتع به من قبل . »

ومع ذلك ظل ميكل أنجلو على موقفه ، وكان قد وجد عملاً فى صب اثنى عشر تمثالاً من البرنز للرسل كى توضع فى كنيسة فلورنسا الكبرى .

وجاءت رسالة أخرى من البابا إلى سودرينى رئيس مجلس الحكم ، فدعا المثال وقال له : لقد سلكت نحو البابا مسلكاً لا يجرؤ عليه ملك فرنسا ، فلينته هذا

الأمر؛ فإننا لا نود أن نجر إلى حرب ونعرض الدولة للخطر من أجلك، فلتعزم أمرك على الذهاب إلى روما.

ومع ذلك ظل الفنان ممتنعا، بل فكر في الرحيل عن إيطاليا بأسرها والذهاب إلى سلطان تركيا الذي دعاه إلى تنسيق جسر بين القسطنطينية وحي پيرا. في هذه الأثناء كان البابا قد قام بحملته على مدينة بولونيا فاستولى عليها ودخل المدينة في موكب حافل في شهر نوفمبر سنة ١٥٠٦، ورأى أن يخلد هذه الذكرى بتمثال تذكاري، وكان في أعماق قلبه لا يرغب في أن يصنع هذا التمثال غير ميكل أنجلو. ولذلك عاد الكردينال اليدوزي، نائبه في حكم المدينة، إلى السعى لدى حكومة فلورنسا كي ترسل الفنان إلى بولونيا، وقد وُعد بأنه لن يقابل إلا بما يجب. وأخيراً رضى المثال وسافر إلى بولونيا مزوداً برسالة من رئيس مجلس الحكم. ولم يكن الفنان راضياً كل الرضا بهذا الخضوع؛ فقد قال عن ذهابه: «لقد سافرت بعد أن وضعوا النير في عنق».

وقال له البابا مقابلة عاصفة وقال له: «كان من واجبك أن تبحث عنا، ولكنك انتظرت حتى جئنا على مقربة منك — أي إلى بولونيا — لكي نبحت عنك». فرجع أمامه الفنان واعتذر إليه في صوت عالٍ قائلاً: إن فراره لم يكن مقصوداً بل إنه اندفع فيه في سورة الغضب، إذ لم يحتمل حجه عن القصر. ولم يجب البابا بل ظل مقطب الجبين مطاطئاً إلى أن تدخل أحد الكرادلة بكلمة يريد بها تهدئته فقال: «لعل قد استك لا تشدد على ما ارتكبه ميكل أنجلو من خطأ، فهو رجل لم يتعلم قط حسن السلوك، فهو لاء الفنانون لا يعرفون كيف يتصرفون ولا يعرفون غير فنهم». فما نطق بهذا الكلام حتى استشاط البابا غضباً على هذا المتدخل وصاح به: «لقد جرؤت على أن تقول لهذا الرجل أشياء لم أحلم أنا بقولها! إنك أنت الذي لا تعرف حسن السلوك فلتذهب من أمامي أيها الجاهل التعس». ومد يده إلى ميكل أنجلو وعفا عنه وأمره بصنع تمثاله.

هكذا عاد البابا والمثال إلى الصفاء بعد القطيعة. وكان البابا يتردد عليه في مصنعه ليشاهد عمله كل يوم تقريباً. وتم التمثال بعد سنة وبضعة أشهر، وكان تمثالاً عظيماً يمثل البابا في ملابسه الرسمية، وهو أكبر من حجمه الطبيعي ثلاث مرات، وكان تمثالاً يظن أنه خالد، ولكن حياته كانت من أقصر ما تكون

حياة هذه الآثار ؛ فلم تمض على إقامته ثلاث سنوات حتى خرجت المدينة من يد البابا، واستولى خصومه عليها ، فكسروا المثال بين سخرية الجمهور ، وصب منه مدفع أطلق عليه جوليا تحقيراً للبابا .

داميكل أنجلو بعد انتهائه من هذا العمل إلى فلورنسا، فإلبث أن دعاه البابا لايتم نصب التذكاري للقبر ، بل ليصور سقف المصلى . وأراد المثال أن يمتنع ويقاوم ، ولكن إرادة البابا الحديدية تغلبت في آخر الأمر وتم الاتفاق على العمل . ووضع الفنان الرسوم ، ولكنه ما لبث أن تصور فكرة أجل وأضخم مما قدر في بادئ الأمر ووضع لها رسوماً ، وعقد اتفاق ثان ولم يأت شهر مايو من سنة ١٥٠٨ حتى كانت العمد والحوامل الخشبية تملأ المصلى .

أراد الفنان أن يجد أعواناً يساعدونه في عمله ولكنه وجدهم دون ما ينتظر فصرفهم جميعاً ، ورفع عبء العمل بأكمله على كاهله . وكان مما يزيد في متاعبه أنه لا يكاد يمضي يوم حتى يزوره البابا في مكان عمله ، ملحفاً عليه أن يسرع . وكان البابا الشيخ يتسلق أحيانا تلك الحوامل الخطرة لكي يشاهد بنفسه ما تم عمله ، وكثيراً ما تحدث بينهما مشادات عنيفة ولكنها لا تلبث أن تزول . وقضى الفنان بقية تلك السنة وشتاء السنة التي تليها في عمل متواصل . وفي شهر مايو تمكن من إجازة قصيرة قضاها في فلورنسا ثم عاد إلى العمل .

كان البابا في هذه الأثناء قد دخل في نضال حياة أو موت من أجل تحرير إيطاليا من الفرنسيين . لذلك اضطر إلى مغادرة روما للتفرغ للقتال ، وكانت الحرب تبتلع كل ما يأتي من مال . فما جاء شهر سبتمبر حتى وقف صرف النقود إلى الفنان . فكتب للبابا مرة يطلب نقوداً ، ثم رأى أن يسافر ويذهب ليراه شخصياً في بولونيا ، فأمر البابا بأن يزود بالمال ، فكان القائمون على الأموال يدفعون إليه بعض الدفعات ولكن في غير انتظام . وظل هو من جهته يصور السقف بالرسوم يوماً بعد يوم ، وكان يفعل ذلك وهو مستلق على ظهره فوق الحوامل الخشبية والألوان تتساقط فوق وجهه ، حتى قيل إنه بعد الانتهاء من هذا العمل ظل زمناً ما لا يستطيع قراءة رسالة إلا إذا رفعها فوق رأسه .

لكي تقرب إلى المكر شيئاً من التعب الذي يحتاج إليه مثل هذا العمل ،

لا يزيد الآن أن نذكر جمال هذه الصور كما رآها الناس منذ خمسمائة سنة وكما يرونها حتى الآن ، ولا ما فيها من نبوغ وقوة ، بل نريد فقط أن نذكر أنه غطى ما تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربع بالرسوم ، وأنه صور من صور الأشخاص ما يربى على ثلاثمائة وأربعين صورة ، كل منها في وضع غير وضع الآخر ، بعضها يبلغ طوله اثني عشر قدماً ، وبعضها يبلغ ثمانية عشر قدماً ، وكلها دقيقة حتى في تفاصيلها من شعر الرأس إلى أخمص القدم .

وكان البابا عندئذ في أخرج الأوقات ، فقد انتصر عليه ملك فرنسا ، ولكن نفسه لم تقهر . وقد عاد إلى روما في أواخر يونيو سنة ١٥١١ فرأى أن أكثر العمل تم . وظل ميكل أنجلو يعمل سنة أخرى بجد واهتمام . وكتب في هذه الفترة يقول إنني أعمل عملاً أشق مما عمله أى إنسان من قبل ، وأشعر بتدهور صحتي ولكنني عازم على الصبر والعمل إلى النهاية . وفي أكتوبر من سنة ١٥١٢ كتب إلى أبيه يقول إنه أتم العمل . وفي أواخر ذلك الشهر احتفل البابا بإزالة الستار عن هذا العمل الخالد ، فوقعت أعين العظماء الذين حضروا الحفل على تلك الصور التي لا تزال تثير الإعجاب ، حتى هذا الزمن بالرغم مما أحدث بها مر السنين .

لم يكن وقتئذ أمام ميكل أنجلو مانع يحول دون استئنافه العمل في النصب التذكاري الذي علق على إتمامه آماله ، وكانت الصعوبة في هذا النصب أنه لم يتقرر بعد المكان الذي يقام فيه من كنيسة القديس بطرس .

ويظن أن المثال كان ينتوى حسب رسومه أن يقيم بناء يكون فيه النعش في قالب من الرخام طوله أربعة وخمسون قدماً وعرضه ستة وثلاثون قدماً ، وتقوم حوله تماثيل ومجموعات تمثل فنون الرسم والنحت والبناء ، وهي أسيرة حداً على البابا الفقيد ، حيث إنها لن تجد مشجعاً بعده ، ثم تماثيل للنصر وأمامها الولايات التي استولى عليها را كعة تدل على خضوعها للكنيسة ، ثم في القسم الأعلى تماثيل أربعة ، يمثل اثنان منها النبي مومى والقديس بولس ، وفوق هذه التماثيل صورة للبابا وهو نائم يحمله ملكان ، فيكون ارتفاع هذا البناء الضخم نحو ثلاثين قدماً ، وفيه أكثر من أربعين تمثالا غير صور لحوادث حياة يوليوس الثاني .

لو أن البابا عاش بضع سنوات لأتم ميكل أنجلو هذا العمل الضخم الذي

ليس له مثيل ، ولكن البابا كان يسرع عاجلا إلى الموت مع ما كان من مظهر الصحة التي تبدو عليه ، ومع أنه ظل يعالج مهام الأمور بنشاطه المعروف ، فكانت وفاته في ١٩ فبراير سنة ١٥١٣ ، وكان طبيعياً أن لا يتم هذا العمل الضخم ، فإن خلفاءه على كرمى البابا كانوا يهتمون للاستفادة من مواهب ميكل أنجلو في أمورهم ، وكان الفنان يحاول عبثاً أن يتم هذا العمل وفاء للرجل الذي أحبه وقدره ، فلم يستطع ، ولكنه مع ذلك ترك أثراً خالداً في صورة ذلك التمثال الرائع للنبي موسى ، الذي نشاهده الآن على قبر البابا يوليوس الثاني في كنيسة سان بيترو دي فينكولى بروما ، وهو الذي يمثل النبي في جلسة عظيمة ، وهو يهيم بالقيام ويكاد ينطق . وكذلك نجد أثره في تمثال الأسيرين العظيمين ، في أرض فرنسا حيث وجدا مأوى في متحف اللوفر .

حسن محمود